الفدائي « شكل قبلا مشكلة ضئيلة بالنسبة لاسرائيل ، اما اليوم فهو يكاد لا يذكر » (ص ٢١٢) . و« حرب العصابات العربية ضد اسرائيل قد فشلت » (ص ٢٤٣) و« حتى عند اليساريين المتطرفين انفسهم بدأت تساؤلات تظهر حول قيام الفلسطينيين فعلا بحرب ثورية مستندة على جماهير ثورية » (ص ٢١٢) « والواقع ... انهم لم يقوموا بحرب تحرير وطنية حقيقية ، بينما قامت اسرائيل بحرب دفاع عن الوجود » (ص ٢١٣) .

ومشكلة الفلسطينيين في عدم واقعيتهم برأي هركابي لانهم « مهما عملوا ، فلن يتوصلوا ابدا الى اقناع الاسرائيليين بالتخلي عن سيادتهم على اسرائيل او نزع الصفة الصهيونية (وهذا يعني اليهودية) لبلدهم » (ص ٢٠٥) . فمأساتهم اذا ليست « بأنهم لم ينالوا الاعتراف بوجودهم كشعب او أمة ، ولكن لان ليس بمقدورهم ان يترجموا هذا الاعتراف الى وقائع سياسية » (ص ٢٣٣) .

وحتى يتوصل الفلسطينيون الى واقعية اكبر (أي استسلام تام امام الاستعمار الاسرائيلي) لا بد من استعمال كافة اساليب « الاقناع » : « أي تغيير بهذا العمق (باتجاه تليين مواقف المقاومة) لن يحدث الا اذا ضاعفت الدول العربية في تمعها ضد الحركات الفلسطينية . عندما تدرك الدول العربية لاي مدى يقودها الصراع الى الانحلال السياسي ... ربما قررت القيام بعمل حاسم ضد الاجهزة الفلسطينية في الخارج » (ص ١٠٤) . ومن المفيد الاشارة الى ان هذا النداء لقمع المقاومة من قبل انظمة عربية نشر في مطلع ١٩٧٠ .

وليس للكاتب الا ان يأمل بأن « الانكسارات المتتالية في العمل من أجل تدمير الدولة اليهودية سيقود جدليا الى ... الرضوخ الى وجودها ، وانتهاء الصراع هكذا » (ص ٥٠) .

لا طريق اذا الا القبول « بالسلام الاسرائيلي » ولا حل الا بدويلة او مقاطعة متعاونة او متحدة مع الاردن واسرائيل . وهذا الحل لا يشكل « الصورة المثالية التي يتمناها الفدائيون وعدد كبير آخر من الفلسطينيين ... الا ان التاريخ احيانا ظالم وبما انه ليس بمقدور الفلسطينيين ان يغيروا أيا من اسرائيل او الاردن حسب رغبتهم ، فالتاريخ لا يطرح لهم حلا آخر » (ص ٢٣٩) ولا تجدي الدموع شيئا « فقد نأسف لمصير الفلسطينيين الذين يجدون آمالهم هكذا محدودة . وقد نعتبر ان هذا المصير مأساويا . ولكننا يجب ان ندرك ان اي توقع آخر خيالي ويفتح المجال امام آلام جديدة سيكون المعنيون اولى ضحاياها طالما لم يعوا الحدود التي يفرضها الواقع عليهم » (ص ٢٤٠). « والمصير الانساني يقضي بأن العديد من المصائب غير قابلة للتعويض » (ص ٢٥٠) .

هذا هو ملخص النظرية الهركابية التي لا تختلف بشيء عن النظرية الرسمية الاسرائيلية : لقد خسر العرب والفلسطينيون حروبا متتالية ضد اسرائيل، والواقعية تفرض عليهم ان يقبلوا بهذه الهزيمة التاريخية (!) — كما فعل الهنود الحمر في امريكا — وان يقبلوا بحلول تضعهم عمليا تحت الرعاية الاسرائيلية . كل هذا يقال بصيغة متعالية توحي بنفس الوقت بشيء من التجرد «والموضوعية».

المشكلة بالنسبة لهركابي ولدولته ان الفلسطينيين لن يرضوا — كما قال احد قادة المقاومة — بأن يكونوا الهنود الحمر في المنطقة . ونضالهم المستمر وتضحياتهم ونضال وتضحيات الشعوب العربية الاخرى خلال اكثر من نصف قرن اثبات على هذا القول . لقد شاء التاريخ — عكس ما يقوله هركابي — ان تأتي الغزوة الاسرائيلية متأخرة في عصر اصبح فيه الاستعمار الاستيطاني غير قابل للتطبيق الناجح . ومأساة الهنود الحمر لن تتكرر في القرن العشرين في عصر ثورات العالم الثالث وانتصارات الاشتراكية المتتالية في العالم . والتاريخ — ولو لم ير هركابي ذلك بحكم موقعه — يسير باتجاه معاكس : اتجاه تحرر الشعوب وتطبيق حقها في تقرير المصير ، اتجاه انهزام الامبريالية في اركان متسعة من العالم . ومهما كان النضال الفلسطيني صعبا ، ومهما حيكت المؤامرات الامبريالية حوله وحول حركة التحرر العربية ، ومهما طالت عملية التطور داخل اسرائيل باتجاه تخلص السكان من الهيمنة الايديولوجية للصهيونية ، فالاتجاه العام في العالم ينطبق على المنطقة وسينتهي الصراع بانتصار قوى التحرر عربا ويهودا ضد اركان القمع الامبريالي والصهيوني . وخطابات التأبين التي ترددها اجهزة الاعلام الصهيونية و« المثقفون » (امثال هركابي) في خدمتها ، لن تدخل اليأس الى قلوب ابناء فلسطين وابناء قضايا الشعوب . وسيتذكرون عبارة احد القادة الثوريين : « ان يتهجم عليك العدو ، فهذا شيء حسن » .